

المتع أن نَحْمَن، لو أن العمر طال بمازلو مثلما طال بشكسبير، أكان تطوره خليقاً أن يستمر بالوتيرة ذاتها. أما أنا فأشك في ذلك، لأننا نلاحظ عقولاً تنضج قبل أجزى، ونحن نلاحظ أن هذه التي تنضج في فترة مبكرة جداً لا يذهب بها التطور دائماً إلى مدى بعيد جداً. وأنا أثير هذه النقطة بمثابة تذكير، بأن قيمة النضج تعتمد على قيمة ذلك الذي ينضج أولاً، وأنه ينبغي لنا، ثانياً، أن نعرف متى نكون معنيين بنضج أفراد من الكتّاب، ومتى نكون معنيين بنضج عصور أدبية. فقد يكون الكاتب الذي يتمتع، بمفرده، بعقل أكثر نضجاً، منتبهاً إلى عصر أقل نضجاً من آخر، بحيث يكون عمله، من تلك الناحية، أقل نضجاً. إن نضج الأدب انعكاس لنضج المجتمع الذي نشأ فيه. والكاتب الفرد — مثل شكسبير وفرجيل — يستطيع أن يعمل كثيراً من أجل تطوير لغته، ولكنه لا يستطيع أن يصل بها إلى النضج ما لم يتهيأ عمل أسلافه لِلْمَسْتَه الأخرية. ولذلك فالأدب الناضج تاريخ من ورائه: تاريخ ليس مجرد حوليات، أو تراكم للمخطوطات والكتابات من هذا النوع أو ذاك، ولكنه تقدم منظم، رغم كونه غير واع، للغة لتحقيق إمكاناتها ضمن حدودها الخاصة.

وينبغي أن يلاحظ أن المجتمع والأدب، مثل الفرد من الكائنات البشرية، لا ينضج بالضرورة على نحو متساوٍ ومتزامن من كل ناحية. فالطفل ذو النضج المبكر هو في الغالب، في بعض أساليبه الواضحة، طفولي بالنسبة لسنه بالمقارنة مع الأطفال العاديين. وهل هناك أي عصر واحد في الأدب الانكليزي نستطيع أن نشير إليه على أنه ناضج كل النضج، وبصورة شاملة ومتوازنة؟ لست أعتقد ذلك، وكما سوف أكرر فيما بعد، أمل ألا يكون الأمر كذلك. ولا نستطيع أن نقول إن أي شاعر فرد في الانكليزية، كان خلال مسيرة حياته، رجلاً أكثر نضجاً من شكسبير، بل لا نستطيع حتى أن نقول إن أي شاعر قد عمل على أن تكون اللغة الانكليزية قادرة على التعبير عن أدق فكرة، أو عن أكثر ظلال الشعور إرهافاً مثلما فعل شكسبير. ومع ذلك فنحن لا نستطيع إلا أن نشعر أن مسرحية مثل مسرحية